عبدالرحمن منيف ...

والإنسان العربي المقهور

غائب طعمه فرمان

ربما لم يكتب لأي كاتب عربي معاصر أن يوزع حياته على خارطة العالم العربي مثلما كتب لعبدالرحمن منيف . أبو عبدالرحمن نجدي تزوج في إحدى رحلاته الى العراق وسوريا والاردن وفلسطين ومصر إمراة عراقية ولدت له عبدالرحمن في عمان . وتوفي الوالد بعد فترة قصيرة من مولد إبنه ، فاضطرت العائلة إلى البقاء في عمان ـ كما يقول عبدالرحمن في رسالة خاصة ـ إنتظاراً للعودة إلى نجد . ولعلَّ عبدالرحمن قد قضى وقتاً غير قليل في الاردن ، فإن له ذكريات فيها تتخلل بعض كتبه ، وعاد إلى نجد ، ثم سافر إلى العراق فدرس فيه ، وعرف البلاد أهلها وطبيعتها ، وظل يحمل جواز سفر سعودياً حتى عام ١٩٦٣ ، حيث اضطر إلى حمل جواز سفر جزائري لبضع سنين ، استبدله بعد ذلك بجواز سفر عراقي ، وعمل ردحاً طويلاً في سوريا ، بعد أن أنهى دراسته العليا في يوغوسلافيا ، باختصاصه الأصلي : النفط ، ثم في العراق ، وقام برحلات مطولة إلى أغلب البلدان العربية . وقد أفاد ذلك ممارسته الأدبية وأثراها ، وجعلها أكثر شمولية في نظرتها إلى الأشياء والظواهر ، وإنْ كان قد مالت به الى التجريد ، احياناً ، في رسم الشخوص ، ورصد الظواهر حتى ليتساءل القارىء أحياناً : من أي بلد عربي هذه الشخصية أو تلك ؟ وأين وقع هذا الحادث أو ذاك ؟ ومع هذا فقد أعطته هذه الرحابة في سعة النظر أكبر عدد من أوجه وأبعاد المشكلة المطروحة ، وتحسسِّ الواقع المشترك بذلك التشابك الموجود بالفعل ، وبعشرات الروابط التي تربط العالم العربي ككل ، وتمازج المشاكل والهموم والتطلعات فيه ، بحيث يتعذر أن توجد في العالم العربي «واحة» أو «طيبة» كما هي في الرواية المقدمة الى القارىء السوفييتي لا تتأثر في الجو العام السائد ، وبتمازج المصائر أو وحدة المصير ، كما يحلولنا ، نحن العرب ، أن نسميه . ويزيد من احساس القارىء العربي بعنصر المشاركة الوجدانية والفكرية بمصائر الناس الساكنين تلك الرقعة الكبيرة المعروفة بالعالم العربي . حقاً أن عبدالرحمن منيف واع بوجود فروق ، ولتكن مؤقتة ، في واقع كل قطر عربي ، وهمومه الخاصة ، إذا صح التعبير ، إلى جانب همومه القومية العربية العامة . فهو في إحدى مقابلاته الصحفية يقول: «كلمـا ازدادت رواياتنا محلية كلما أصبحت عالمية ، بمعنى آخر كلما كانت أقرب الى الصدق في تصوير الجو المحلي ، وكلما كانت أعمق في حياة الناس حتى ولو كانوا مجموعة صغيرة ، كلما أصبحت أقرب إلى العالمية» (مجلة «المعرفة» السورية ، العدد ٢٠٤ ، شباط ١٩٧٩) .

دخل عبدالرحمن منيف الحياة الأدبية بروايته الأولى «الاشجار واغتيال مرزوق » التي صدرت في بيروت عام ١٩٧٣ ، وفي الحال لفتت إليه أنظار النقاد والقراء على حد سواء . وبعد ذلك أصدر منيف خمس روايات هي

كالآتي : «قصة حب مجوسية» ١٩٧٤ ، «شرق المتوسط» ١٩٧٥ ، «حين تركنا الجسر» ١٩٧٦ ، «النهايات» ١٩٧٨ ، و«سباق المسافات الطويلة» عام ١٩٧٩ .

يقول عبدالرحمن منيف عن دخوله الميدان الأدبي ، بعد أن كان معروفاً في العالم العربي كأخصائي في النفط : «كنت حتى نهاية الستينات مجرد قارىء جيد . وبعد ذلك ، ونتيجة أوضاع نفسية خانقة لم أجد سوى طريق واحد : الكتابة ، وهكذا بدأت عام ١٩٧٠ . . .»

في رواية منيف «الاشجار واغتيال مرزوق» إشارات واضحة إلى حدث مثير في تاريخ العرب المعاصر ، وهو ما سمي فيما بعد ، بنكسة حزيران ، أي هزيمة العرب عام ١٩٦٧ . فهو يذكر حزيران في هذه الرواية عدة مرات ، ويصور منصوراً جندياً هزم ، ويكتب «الجندية، الطلقة التي أصابت منصور، الهزيمة» .

لقد كان ذلك صيفاً ساخناً فاق في حرارته رمضاء الصحراء، سبّب جرحاً عميقاً في الكرامة العربية، وهزّ العالم العربي دانيه وقاصيه، ونبّه الكثيرين إلى حقائق قاسية موجعة خلقها الواقع العربي، الذي كان يموّه ويُطلى على الجماهير العربية بالتزوير والأكاذيب. وقد واجهت هذه الجماهير مصيراً كالحاً. ووجدت نفسها وحدها مع الخيبة المفجعة. وأي شي أخيب وأفجع من الهزيمة؟! والمدركون وحدهم، ومن بينهم عبد الرحمن منيف، اقتنعوا بأنها لم تكن هزيمة الانسان العربي بقدر ما هي هزيمة الانظمة الرجعية السالبة لحقوقه، بقدر ما هي هزيمة للتركة السيئة السيئة من مخلفات الماضي والاستعمار وسخام القرون المظلمة.

وطبيعي أن تنتج تلك الهزّة في المجتمع العربي أدباً ، وقد انتجت بالفعل ألواناً مختلفة من هذا الادب شعراً وروايات ومسرحيات وتأملات وحماسيات . وطوال سنين عديدة ظل المثقفون العرب ينزفون كتابات، ويغرقون الصحف والمجلات ودور النشر بسيل لا ينقطع من ردود الافعال، والانطباعات، والشتائم، والاحلام، والتوقعات، وما يرونه صورة لما كان، ولما سيكون، وكان قدر كبير من ذلك متأثراً بلحظات وقوع الفجيعة، وبالاجتهادات الشخصية، ومن وحي الساعة، كما نقول نحن، أي للاستهلاك اليومي، وقد نُسي في خضم المهمات الجديدة للفكر العربي والانسان العربي، ولكن ثمة جانباً منه لا يزال محتفظاً بصدقه وجدته واصالته، لأنه رصد أبعاد القضية بعمق، وشخّص سبب الانهيار. ومن هذا الجانب رواية عبدالرحمن منيف. «الاشجار واغتيال مرزوق».

هذه الرواية ايضاً تطرح جانباً من الأسئلة التي كانت تتردد على كثير من الألسنة في تلك السنة البغيضة، وما تزال تتردد: لماذا ولماذا: والف لماذا . والأديب الأصيل، في كل مكان وزمان، لا يقبل بشعار السعادين الثلاثة: لا أسمع، لا أرى، لا أشم. فان هذه الحواس وحواس أخرى هي المصادر الرئيسية التي تمده بالمواد الأولية لقوته اليومي. وعندئذ يستطيع أن يتأمل ويكتب أدباً صادقاً، ويساهم في رصد الواقع، وصياغة المستقبل و«الانسان المجروح لا ينسى ابداً» على حد تعبير احدى الشخصيتين الرئيسيتين في رواية منيف، على عكس الحكمة العربية القديمة: «عفا الله عما سلف». ولا بد للمجروح، بحماس ولهفة المجروح ايضاً، ان ينقب ويبحث ليكتشف المسبب لهذا الجرح. وحينذاك تعود إلى الجريح عافيته الجسدية، وعافيته النفسية والفكرية ايضاً. يعود إليه صفاؤه الذهني، ووضوح النظرة، أو يتملكها ويكتسبها اكتساباً، إذا لم تكن له من قبل. وهذه فضيلة التجربة والممارسة الحقيقية.

يعزو منيف هذا الجرح العميق في نفس الانسان العربي، الى «القهر». فيقول «أنا اعتبر القهر الهمَّ الرئيسي، وليس أحد الهموم الرئيسية (التي يجب أن تتناوله الأعمال الادبية). وما افترضه ـ وقد يكون هذا بحاجة الى برهان ـ أن موضوع القهر هو الموضوع الاساسي، والكبير والخطير في الحياة العربية المعاصرة. وفي الوقت الذي نستطيع أن نتغلب على القهر، ونخلق المواطن الحر، وفي جو انساني، يمكن ان نكسب الحياة العربية كلها. لا يمكن ان نتكلم عن العدالة والحرية إلا من خلال المواطن الحر، من خلال قدرة الانسان على المشاركة وعلى التعبير، وعلى أن يكون آمناً على حياته، ومستقبله، وان تتاح له فرص العمل والتنقل، هذه الحريات البسيطة التي يمارسها كل انسان في العالم بنسب متفاوتة الى حد ما» (نفس المقابلة الصحفية في مجلة المعرفة السورية). فليس غريباً أن يُصدِّر منيف روايته الثالثة «شرق المتوسط» ببنود من الاعلان العالمي لحقوق الانسان: «يولد الجميع أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق. . . الخ».

وهذه القناعات الأصيلة تفرش روايات منيف، ولاسيما روايته هذه. والشخصيتان الرئيسيتان فيها ضحيتا قهر واستلاب من قبل القوى السوداء في واقع قائم متعفن يعود في بعض وجوهه إلى قرون خلت. وكلتاهما تصرخ في وجه هذا الواقع بمرارة ونقمة، وترفضه رفضاً قاطعاً. وهذه الصفة السلبية الراكدة الغبيَّة تصبح، في الجو العام للرواية، سجيةَ تُحلي كلتا الشخصيتين:

ـ«ما ادافع عنه بشراسة هو عالمي الداخلي، وبعض الاحيان حريتي».

ـ «وعالمه الداخلي يطالبه برفض «هذا العالم المجوسي» قائلاً له «لا تندمج، وإن استطعت يجب ان تساهم في تغييره».

ـ «أنا أكره طريق الحياة والعلاقات في بلادنا، ولن تزول هذه إلا بثورة تحرق كل شيء»

ولماذا كل شيء؟ لأن هذه هي المرحلة الأولى من وعي انسان يتلمس وعيه من خلال العذابات وتجربته واخفاقاته المؤلمة ورصده للواقع، ولأن النقمة سلاح آخر ضد الاندماج، والنزول أمام الأمر الواقع، وهي التي تغذي الرفض، والسير بدون غاية، وإن كانت أحياناً معدومة الهوية، أو العنوان. وهذه النقمة والرفض الشديد هما اللذان دفعا بطل «شرق المتوسط، الى ان يتخلى عن الواقع كله، ويقول بتلك اللهجة الهجائية اللاذعة التي يعتمدها عبدالرحمن في كتبه، وبتلك السخرية المريرة اليائسة في سورة من سورات الحرقة والحنق الى حد إيذاء النفس: «سأشد السيفون في المرحاض، واترك كل شيء ينسحب إلى تحت. . أفكاري الفلسفية، أحلامي، ماضي، اسمي، كل شيء . .» وهذه افكار رجل مجرد من أبسط الحقوق، حقه

في الدفاع عن نفسه. حقه في الحرية، حقه في الحب، في العمل، في الكرامة، في النظافة، في الثقافة الحرة، في السفر، في خلق عائلة وانجاب اطفال، في غرس اشجار، وفي بلاد تكون فيها البطالة، والبطالة المقنعة، والتسكع ظاهرة تلفت النظر، يكون العمل ـكما يقول الياس نخلهـ إحدى الشخصيتين الرئيسيتين في الرواية، «هو الشيء الوحيد الذي يفتش عنه الانسان، يغامر من اجله، حتى لو تعرض للخطر، للموت. فالبطالة موت من نوع آخر». وتقول الشخصية الرئيسية الثانية «عيب. يا منصور، ان تكون بلا عمل. فشرف الانسان ان يعمل».

تقلب الياس نخله في اعمال كثيرة «حتى لم يترك عملاً يعتب عليه» على حد تعبيره. زاول كل الاعمال الصغيرة البسيطة التي تبقيه على صلة مع الناس، ومع الحياة العريضة المهمومة المربوطة بالارض والعرق والآمال الصغيرة والاحلام الكبيرة. وكان، كما قال، «لا يستقر في عمل، ولا يسخن الارض تحته». ولكن الخيبة كانت تلازمه، ليس بسببه في اغلب الظن، بل بسبب «الحياة التي لا تترك للانسان حتى ان يحلم» وينتهي المطاف بالياس نخله إلى ان يصير «مهرباً». ويؤول، في النهاية، الى ما يؤول إليه المهربون. أو اغلبهم على الأقل. والياس نخله، لهذا السبب، ولمعاكسة الحياة له حزين. ولحزنه ما يبرره. لأنه يرى الأرض العربية المهجورة تتحول إلى أرض «مليئة بأعواد القطن وروث الدواب». ذلك حزن انسان أُجبر على التخلي عن الارض التي ارتبط بها بالف وشيجة ووشيجة، وعن الاشجار التي يحبها. فتظل الارض تحمل معنى الاغتصاب، ويظل الياس نخله مطروداً من هذه الارض بغير ارادته.

والاشجار، كما يفهمها الياس نخله، تحمل معنى رمزياً عميقاً. فهي تعني الخضرة والنماء، والخير والعطاء، والتقاليد الجيدة والقيم الانسانية الممتدة جذورها عميقاً في الارض، كما هي الاشجار. وهو يشبهها احياناً بالاطفال: «الاشجار مثل الاطفال، فاذا قطع الناس اشجارهم فان الرب يتركهم، ويعطي المطر لغيرهم، لمن عندهم اشجار». واحياناً يشبهها بالرجال و«خسارة الاشجار مثل خسارة الرجال لا تعوض». بل هي احياناً ترمز الى العمل والكدح، كما يبدو لي: «أتعرف ما هي المدن؟ إن المدن هي البشر والاشجار». ولكن الناس، أو القساة منهم، يقطعون الاشجار بلا مبالاة، ويهملونها، ويزرعون في مكانها القطن. والقطن أيضاً رمز. وهو عندنا يرمز، لحد ما، الى الهشاشة والزوال والتفكك وعدم التماسك. فيقول الناس إنه «رخو كالقطن». ومَنْ يدري؟! فقد يكون المؤلف قد رمز به الى الربح السريع الزائل. نكسة حزيران نفسها قد خلقت «اناساً جنّوا، واناساً اتخموا، واغتنوا، وضؤلت عقولهم». وكان خصام الياس نخله مع الناس، هو في كونهم يضحون بالاشجار، القيم الانسانية الاصيلة، الخضراء اليانعة، النابتة في الارض، من أجل جني القطن، المحصول الزائل، الاعتبارات اليومية العابرة، بينما الحقيقة «أن بلدة لا تنبت فيها الاشجار لا يمكن ان يعيش فيها الانسان». ولهذا يترك «الطيبة» إلى «أرض غبراء لا يطيق ان يعيش فيها يوماً واحداً، فيلجأ إلى الجبل. والجبل نفسه يحمل معنى رمزياً في الأدب. ولنذكر دستيوفيسكي و«ابلهه»، ذلك الذي هبط من الجبل، سويسرا، الى المدينة بطرسبورغ، مثلما فعل الياس نخله، فمسخته المدينة: «المدينة البعيدة هي التي غيرتك، يا الياس، اصبحت انساناً لا تعرف رائحة الأرض، ولا تحب شيئاً».

والطيبة هي رمز الارض العربية التي يتخلى عنها أولئك الذين يغتنون بالقطن، بدلاً من ان يعتنوا بالأرض، ويمدوا جذورهم في الأرض. ولكن الى جانب هذه الصورة القاتمة هناك جَلَد، وهناك إصرار، وهناك ارتباط. والياس نخله لم يفقد القدرة على العمل، ولا الرغبة فيه، ولم يهزم هزيمة نهائية لم يفقد صفاته الانسانية. «ماتزال العداوات تحزنه، والصداقات تفرح قلبه، وما زالت عمليات البيع والشراء تنفره». إن بطل منيف ما يزال يقاوم عناصر الركود، ويتحدى الاوضاع البالية، و«يبحث عن البقايا الشريفة في الانسان قبل ان تُسحق وتتلاشى» وهو رغم معارضته للواقع الراهن، يحس بالارتباط، و «تبقى» الطيبة ماضيه، سعادته وتعاسته»، ورغم شعوره بالوحدة، ولجوئه اليها، ولو كان يخاف منها، إلا أنه يعتقد بأن «الانسان، إذا كان وحيداً، لا يعرف كيف يتصرف. أما إذا كان مع الآخرين، فإنه يكون شجاعاً وذكياً». وهذه الفكرة تتردد في رواية «شرق المتوسط» ايضاً، حيث يقول المؤلف «إن أقوى الناس، وأكثرهم قدرة على التصرف، يفقدون، في لحظات معينة، قدرتهم على أن يتصرفوا منفردين. يجب أن يكون أحدهم إلى جانبهم لكي يقول لهم ما يجب ان يفعلوا». كما ان منيف اتخذ من مرزوق رمزاً ايضاً، فهو على الرغم من معرفته بأنه قد اغتيل، وقتله الجلاوزة وانصار الظلام، إلا انه يقول: «إنه لا يموت»... لأنه ضميرُ هذه الجماهير التي تواصل الحياة، رغم المعوقات والحواجز، رغم القهر والاضطهاد، لأنها تؤمن بانتصارها الأخير، ولأن الانسان العربي ـ كما يقول عبدالرحمن في مقابلته مع مجلة المعرفة، وهي المقابلة التي اشرت اليها سابقاً، «عندما امتحن حقيقة في قضايا اساسية، أثبت انه يستحق الحرية، ويستحق ان ينظر اليه نظرة فيها الكثير من الانسانية. اعط للآخرين الحرية، تجدهم أقدر على ان يكونوا منتجين، وان يعبروا عن امكانيتهم الحقيقية».

وذلك هو التفاؤل والايمان باصالة الانسان وجدارته وقيمته، رغم ما سيصادفه القارىء من صور حزينة حالكة في ثنايا الرواية. ولكن من المفيد ان يعرف القارىء ان بلاداً، او عالماً كاملاً يسمى بالعالم العربي، مشهوراً بغناه وثروته النفطية والمعدنية، والبشرية والثروات الأخرى، فيه هذا القدر من التعاسة والمعاناة والشقاء والمرارة والحرمان، فيه هذا القدر من القوى الرجعية السوداء، وفيه هذا القدر من إهدار الحقوق، ونكران انسانية الانسان. حتى لتبقى الحياة ـكما يقول المؤلفـ مجرد الحياة «بطولة، دون ضجة، بطولة صغيرة يمارسها الانسان يومياً من اجل ان يظل صادقاً وشريفاً»

فكيف إذا كان الى جانب ذلك نضال ومقاومة وإصرار على التغيير؟!

*كتب الروائي العراقي غائب طعمه فرمان هذه المقالة بتكليف من دار النشر السوفييتية (بروغرس)، كمقدمة لرواية عبدالرحمن منيف (الأشجار واغتيال مرزوق) التي ستصدر قريباً بالروسية في موسكو.